

التفسير المطول - سورة القصص 028 - الدرس 07-8: تفسير الآية: 43-46،
سيدنا موسى والقرون الأولى.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ : 1990-7-6

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين،
اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا،
وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن
يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

القرآن الكريم دستور إلهي وهو كتاب هداية وبيان وإرشاد:

أيها الإخوة المؤمنون ؛ مع الدرس السابع من سورة القصص.

وصلنا في الدرس الماضي إلى قول تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا
أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.. لا بد من وقفة عند كلمة:
﴿بَصَائِرَ﴾، وعند كلمة: ﴿هُدًى﴾، وعند كلمة: ﴿رَحْمَةً﴾، وعند كلمة: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

الله سبحانه وتعالى يصف الكتاب الذي أنزل على سيدنا موسى، بل إن هذا الوصف
ينطبق على كل كتاب سماوي، خالق الكون خلق الإنسان في أحسن تقويم، خلقه ليُسعده في حياة
أبدية، جاء به إلى الدنيا كي يستعد لهذه الحياة الأبدية، لا بد من بيان إلهي، لا بد من خطاب
إلهي، لا بد من تنوير إلهي.

اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا
كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ
نَارٌ نُوْرٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (35)
سورة النور

لا بد من توجيه إلهي، لا بد من دستور إلهي، لا بد من قانون إلهي، الدستور والقانون،
والتوجيه، والبيان، والإرشاد، والخطاب، إنه جوهر كتاب الله عز وجل، جوهره، لذلك ربنا سبحانه

وتعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾..
القرون الأولى: قوم نوح وعاد وثمود.

﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ بصائر جمع مفردھا بصيرة، مدائن مدينة، وبصيرة على وزن فعيلة، وفعيل صيغة من صيغ مبالغة اسم الفاعل، أي الشيء الذي يبصر، الشيء الذي يجعلك تبصر، فكأنَّ الله سبحانه وتعالى أنزل على رسله الكتاب كي نبصر الحقيقة، مع أن الله سبحانه وتعالى رَوَدنا بعقلٍ متطابقٍ تطابقاً تاماً مع الكون، خلق الكون وفق سنن، لكل شيءٍ سبب، ولكل شيءٍ غاية، ولا يتناقض الشيطان، هذه سنة ثابتة من سنن الكون، وأودع فينا العقل كذلك، هذا العقل البشري جهاز إدراك، قوة مدركة، لا تفهم الأشياء من حولها إلا بأسبابها، ولا تفهم الأشياء من حولها إلا بغاياتها، ولا تقبل التناقض، إضافةً إلى أن الله سبحانه وتعالى خلق الكون تجسيداً لأسمائه الحسنى، خلق في الكون آياتٍ لا تعدُّ ولا تحصى تدل عليه، وأودع فيك العقل، وزوَّدك بفطرةٍ سليمة، ترتاح إذا عرفت الله، وسرت على منهجه، وفوق كل ذلك أنزل على رسله الكتب من أجل أن ترى، إن لم تر بعقلك، إن لم تر بفطرتك، إن لم تر بالحوادث رأيت بالكتاب، كأن الله سبحانه وتعالى نوع مصادر الهدى ؛ يمكن أن تصل إلى الله بعقلك، ويمكن أن تصل إليه بفطرتك، ويمكن أن تصل إليه من خلال استقراء الحوادث، ويمكن أن تصل إليه من خلال الكتب التي نزلها على رُسُلِهِ، فلذلك يقول ربنا عزَّ وجل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾.

الكتاب يُعينك على أن تبصر، يدعوك إلى أن تبصر، يجعلك تُبصر، بصائر جمع بصيرة، وبصيرة على وزن فعيلة، مؤنث بصير، أي فعيل بمعنى فاعل، صيغة مبالغة اسم الفاعل، فإذا عرفت الله عزَّ وجل من خلال هذا الكتاب، وعرفت لماذا أنت في الدنيا، أين كنت؟ وإلى أين المصير؟ وما مهمتك في الدنيا؟ وما طبيعة الحياة الدنيا؟ ما جوهرها؟ ولماذا خلقت؟ إذا عرفت ذلك كان هذا الكتاب هدىً لك في الوسائل، الكتاب أبصرَكَ بالغايات، والكتاب هداك إلى الوسائل، بيِّن لك الكتاب كيف تُعامل الآخرين؟ كيف تأخذ ما لك، وتعطي ما عليك، كيف تتزوَّج، كيف تُزوِّج، كيف تتبع؟ كيف تشتري؟ كيف تعامل الناس؟ كيف تتصل بربك؟ بعد أن كان الكتاب بصائر لك في تعريفك بوجود الله، وأسمائه الحسنى، وحقيقة الإنسان، وحقيقة الحياة، ولمحة عن الماضي، ولمحة عن المستقبل، الآن يعود الكتاب هادياً لك في المنهج التفصيلي، لذلك:

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (9)

سورة الإسراء

لذلك:

قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123)

سورة طه

هذا كلام رب العالمين، كلام الذي خلق الإنسان.. ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ﴾ فلا يضل عقله، ولا تشقى نفسه، ولا يمكن أن ترى حادثة، أو حالة، أو شخصاً اتبع هدى الله عز وجل وشقيت نفسه أو ضلّ عقله، هذا كلام الخالق، مصداقيته مئة في المئة.

الرحمة مطلب كل البشر:

يا أيها الإخوة الأكارم ؛ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى﴾ .. إذا عرفت الله عز وجل، واهتديت إلى ما يرضيه جاءتك الرحمة، الرحمة مشروطة بتطبيقه، الكتاب بصرك بالحقيقة الكبرى في الكون، بصرك بحقيقتك، بصرك بمهمتك، والكتاب هداك إلى الوسائل، إلى كل منهج تفصيلي يحقق لك الغايات، فإذا عرفت الله عز وجل، وسرت على منهجه التفصيلي كان الكتاب رحمة لك، وكلمة ﴿رَحْمَةً﴾ من أوسع الكلمات، يرتاح جسمك، وترتاح نفسك، ويطمئن قلبك، وتسعد نفسك، ويستقر فكرك، وتسكن أعضائك، وتستقر في بيتك، إنها رحمة، وكلمة ﴿رَحْمَةً﴾ الشيء الذي ترتاح له، الشيء الذي يريحك.

والإنسان لا يرتاح، ولا يطمئن، ولا تسكن نفسه إلا إذا كان مستنداً إلى قوّي، إلا إذا طمأنه القوي على مستقبله، الناس الآن يبحثون عن الطمأنينة، يبحثون عنها في بعض الخرافات أحياناً، هذا الذي يأتي المُنَجِّم أو المُنَجِّمة يبحث عن ماذا؟ يبحث عن الطمأنينة، وقد يبحث عن الطمأنينة من خلال مالٍ يُجَمِّعُهُ، وقد يبحث عن الطمأنينة من خلال علاقاتٍ متينة مع شخصياتٍ مهمةٍ يُقِيمُهَا، يبحث عن الطمأنينة من خلال عنايةٍ فائقةٍ بجسده، إنه في النهاية يبحث عن الطمأنينة، ولكن الطمأنينة الحقيقية لا يملكها إلا الله عز وجل، فإذا كنت معه منحك إياها.

الفرق بين الأمن والسلامة:

وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81)

سورة الأنعام

مَن هم؟ مَن هو الفريق الذي يستحقُّ الأمن؟ الأمن كلمة دقيقة جداً، الأمن شيء، والسلامة شيء، السلامة عدم حدوث الخطر، ولكن الأمن عدم توقُّع الخطر، وأنت من خوف الفقر في فقر، ومن خوف المرض في مرض، وتوقُّع المصيبة مصيبة أكبر منها: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ(82)﴾ والله الذي لا إله إلا هو ما من نعمة على وجه الأرض تفوق نعمة الأمن، ولا أمن إلا بالقرب من الله عزَّ وجل، قد تطمئن بالمال فتأتي مصيبة لا يُجدي فيها المال، مرض عضال، ماذا يفعل المال؟ أنت مطمئن بالقوة تأتي مصيبة لا تتفعلها القوة، أنت مطمئن بالصحة، أنت مطمئن بالأولاد، أي مصدر إذا اعتمده ليكون مصدر أمنك غير الله عزَّ وجل يجعله الله تأديباً لك، مصدر قلق لك، الجهة التي اعتمدها جهة لأمنك تغدو بالشرك بالله جهة قلقك: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ(82)﴾، ألم يذكر الله عزَّ وجل أن من نعمته على قريش أنه هو:

الذي أطعمهم من جوعٍ وأمَّنهم من خوفٍ

سورة قريش

إذا فقدت نعمة الأمن لا ينفع المال، ولا تتفعل القوة، ولا تتفعل العشيعة، ولا ينفع شيء من هذا القبيل، لذلك حينما يفقد الإنسان رحمة الله عزَّ وجل يبحث عن الطمأنينة في مظانٍ ليست صحيحة، يبحث عنها عند الأقوياء، يبحث عنها عند الأغنياء، يبحث عنها في المتع الرخيصة، يبحث عنها في مباحج الدنيا، ولكن هذه المصادر كلها مصادر مزيفة، المؤمن وحده هو الذي ينعم بالأمن، وإن الله يعطي الصحة والذكاء والمال والجمال للكثيرين من خلقه، ولكنه يُعطي السكينة بقدرٍ لأصفيائه المؤمنين.

القرآن الكريم يبصر الإنسان بهدفه ويهديه إلى المنهج التفصيلي في كل شؤون حياته.

إذاً: من خصائص الكتاب أن يُبصرك بالهدف الكبير، والحقيقة الكبيرة، وبحقيقتك، وبحقيقة الدنيا، والكتاب يهديك إلى المنهج التفصيلي في كل شؤون حياتك، مضافاً إليه السنة النبوية، لقول الله عزَّ وجل:

مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (7)

سورة الحشر

وإذا آمنت بمضمون الكتاب، واتبعت منهجه يصبح رحمةً على قلبك، والرحمة في الدنيا غاية كلِّ حيٍّ، لذلك:

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30) نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ (31)

سورة فصلت

الإسلام دين الفطرة:

﴿وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ كلما جاءت في القرآن الكريم كلمة لعلهم يتذكرون:
كَلَّا إِنَّهَا تَذِكِرَةٌ (11)

سورة عبس

هذه إشارة دقيقة إلى الفطرة، أنت بالفطرة مؤمن بالله عز وجل، فإن لم تؤمن تضايقت نفسك، شعرت بالقلق، شعرت بالضياع، شعرت بالتمزق، شعرت بتفاهة الحياة، لا ترتاح النفس إلا إذا عرفت ربها، هكذا فطرت، هكذا جُبلت، هكذا صُممت، هكذا خلقت، لذلك الإسلام دين الفطرة، الدين الذي يتطابق مع طبيعة الإنسان تطابقاً كلياً هو الإسلام، فإذا بحثت عن الإسلام بحثت عن فطرتك، إذا بحثت عن الإيمان بحثت عن طبيعتك، إذا طبقت مبادئ الدين قطفت الثمار اليانعة، لذلك: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.. أنت لا تقول لإنسان: تذكر هذه الحادثة إن لم تقع الحادثة، تذكر هذا المنظر، إن لم ير هذا المنظر، قد تطلع الإنسان على منظر فتقول: انظر إلى هذا المنظر، مقبول، أما أن تقول له: تذكر هذا المنظر، معنى تذكر هذا المنظر أي قد رأيت من قبل، لذلك ربنا عز وجل يقول: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذِكِرَةٌ﴾، أنا حينما خلقتكم، وحينما فطرتكم، فطرتكم على معرفتي، وجعلت فطرتكم لا ترتاح إلا بمعرفتي، فإذا عرفتموني فقد سعدت نفوسكم، من هنا قال الله عز وجل: ابن آدم اطلبني تجدني، فإذا وجدته وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء، إذاً هذه معنى: ﴿بَصَائِرٍ﴾، معنى: ﴿هُدًى﴾، معنى: ﴿رَحْمَةً﴾، معنى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

في القرآن الكريم إعجاز في المضمون وفي الشكل:

كما قلت في الدرس الماضي: في القرآن الكريم إعجاز، الله سبحانه وتعالى أرسل أنبياءه، وأرسل رسله، لا بد من أن يعطيهم دليلاً على أنهم أنبياءه، لا بد من أن يعطيهم دليلاً على أنهم رُسُلُه، ما الدليل؟ المعجزات، لا يستطيع مخلوق على وجه الأرض كائناً من كان أن يجعل العصا ثعباناً مبيناً، فإذا جاء إنسان، وألقى العصا التي بيده فإذا هي ثعبان مبين، إذاً هذا مؤيدٌ من خالق الكون، فالمعجزة في أصلها دليلٌ قطعي على نبوة النبي ورسالة الرسول، وهذا الكتاب الذي بين أيدينا هو معجزة النبي عليه الصلاة والسلام، إنه يدلُّ على أن النبي عليه الصلاة والسلام هو رسول الله، لكنَّ هذا الكتاب معجزةٌ باقية، بينما معجزات الأنبياء السابقين حادثة وقعت، وانتهت، وأصبحت خبراً، بينما هذا الكتاب معجزةٌ باقية، وقد تحدثت في الدرس الماضي عن أن إعجاز القرآن موضوعٌ كبيرٌ جداً لا تكفيه دروس ولا حلقات، ولكن بشكل مختصر هناك إعجازٌ في المضمون، وهناك إعجازٌ في الشكل.

في المضمون: التشريع الذي في القرآن شيءٌ معجز، البشرية مع تطورها، ومع تداخل التأثيرات فيها، مع انتقالها من طورٍ إلى طورٍ، يبقى تشريع القرآن الكريم تشريعاً صالحاً لكلِّ زمانٍ ومكان، وقد ضربت على هذا بعض الأمثلة، كيف أن القرآن الكريم أمر بقطع يد السارق، والمجتمعات الحديثة التي تدَّعي أنها مجتمعاتٌ متألِّفة في كل ثلاثين ثانية ترتكب جريمة اغتصاب، أو قتلٍ، أو سرقة، هذا في مجتمعات الغرب، وفي مجتمعات الشرق اهدتوا بعد فوات الأوان، وبعد أن دفعوا الثمن باهظاً إلى أنه لا بد من تحريم الخمر.

المجتمعات الآن في شرقها وغربها تقترب من الإسلام، لا حباً بالإسلام، ولا إيماناً به، ولكنها مُضطرَّة، لأن الحل الإسلامي هو الحلُّ الأمثل، إذاً هذا الكتاب الكريم مُعجَز في تشريعه، مُعجَز في قضاياها العلمية.

ليس في القرآن آية مناقضة للحقائق العلمية المقطوع بها:

أولاً: لا يوجد في القرآن الكريم آية واحدة جاءت حقيقة علمية وناقضتها، لو كان هذا القرآن من عند غير الله مثلاً: من يخطر في باله في عهد النبي عليه الصلاة والسلام أن هناك وسائل للنقل حديثة سوف تكون، كانت الحياة يومئذ تقوم على الناقة، وعلى الحصان، وعلى الدواب، يقول ربنا عزَّ وجل:

وَالْخَيْلِ وَالْبِغَالِ وَالْحَمِيرِ لِيَتْرَكْنَهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8)

سورة النحل

لو أن الآية انتهت عند هذا الحد، وجاء الإنسان المعاصر، وركب الطائرة، وركب السيارة، وركب الباخرة، وركب هذه الوسائل السريعة، وقرأ الآية، النبي عليه الصلاة والسلام مهما كان عبقرياً، مهما كان ذكياً، مهما كان متفوقاً لا يستطيع أن يخرق المجهول، لكن الله سبحانه وتعالى عالم الغيب والشهادة قال: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، غطت كل الوسائل، كتاب خالق الكون.

في عهد النبي ما كان للعلم أن يعرف أن العنكبوت ذكرٌ وأنثى، وأن الأنثى هي التي تبني البيت، لكن ربنا سبحانه وتعالى قال: مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعُنكُبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعُنكُبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (41)

سورة العنكبوت

بناء التأييث الساكنة، لم يكن هذا معروفاً على عهد النبي عليه الصلاة والسلام. لم يكن معروفاً على عهد النبي عليه الصلاة والسلام أن الإنسان إذا صعد في الطبقات العليا من الجو قلَّ الضغطُ، وشعر بالضيق الشديد: فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (125)

سورة الأنعام

هذا من إعجاز القرآن العلمي. ما كان أحدٌ يعرف أن نوع الجنين يحدده الحوين المنوي: وَأَنَّهُ خَلَقَ الزُّوجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (46)

سورة النجم

ما كان أحدٌ يعرف في عهد النبي عليه الصلاة والسلام أن كُلَّ شيءٍ يدور حول نواة، قال تعالى:

لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (40)

سورة يس

ما كان أحدٌ يعرف في عهد النبي عليه الصلاة والسلام أن الشمس تجري: وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (38)

سورة يس

طبعاً المجال لا يتسع لاستقصاء الآيات، أضربُ بعض الأمثلة، القرآن طافحٌ بآياتٍ لا حصر لها تُبَيِّنُ أن هذه الآيات لا يمكن إلا أن تكون من عند خالق الكون، لذلك قال الإمام عليّ كرم الله وجهه: << في القرآن آياتٌ لما تُفسَّر بعد >>.

إذاً في المضمون يوجد إعجازٌ علمي، يوجد إعجازٌ تشريعي، يوجد إعجازٌ إخباري، القرآن فيه حديثٌ عن غيب الماضي، وهذه آيات غيب الماضي، ليست أخباراً عن الماضي فحسب، بل إشارة إلى هذا العقل البشري، أن أيها الإنسان فكّر، هذا النبي الأمي الذي ما قرأ، وما كتب، وما حصّل من ثقافة عصره شيئاً، ولا اتصل، عاش في صحراء، عاش في البادية، من أين له هذه الأخبار الدقيقة؟ من أين له أن يأتي بأخبار سيدنا موسى مع شعيب؟ وسيدنا موسى مع فرعون؟ من أين له أن يأتي بقصة مريم الصديقة؟ ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعَرَبِ إِذْ قَصَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾.. أي حينما حملناه التوراة التي فيها الأمر والنهي، والوعد والوعيد، ما كنت أنت معه، فمن أين جئت بهذه الأخبار ألسنت نبي الله؟ ﴿وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾، ما حضرت معه المناجاة، ﴿وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ أي جاء من بعد سيدنا موسى أقوامٌ وأقوامٌ وأقوامٌ تطاول عليهم العُمُر، أي نسوا حظاً مما ذكروا به، نسوا كتاب الله، نسوا التوراة التي أنزلت على نبيهم، إذاً يقتضي الأمر أن يبعث الله عزّ وجل في كل حِقْبَةٍ رسولاً، في كل حِقْبَةٍ حينما تضيع معالم الحقيقة، حينما يفرغ الدين من مضمونه، حينما يغدو الدين طقوساً لا معنى لها، حينما تصبح الديانة شيئاً لا مغزى له يأتي نبيٌّ جديد ليجدد لأمتي دينها: ﴿وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا﴾ معنى: ﴿ثَاوِيًا﴾ أي مقيماً ﴿فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتَلَوُ عَلَيْهِمُ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾، كلمة: ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾، أي إرسال الله الأنبياء والرسول سنةً ثابتةً من سننه تعالى. وهناك آيات أخرى:

إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (30)

سورة المؤمنين

﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أي تقتضي رحمة الله عزّ وجل، تقتضي عدالته، تقتضي حكمته، يقتضي علمه أن يرسل الله عز وجل للناس في كل حين رسولاً يرشدهم إلى ربهم: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ آياتٌ بعضها يأخذ برقاب بعض، بعضها يؤكد بعضها الآخر.

إخبار القرآن عن غيب الماضي والحاضر والمستقبل:

إن ما في هذا القرآن من أخبار، ما فيه من قصص، ما فيه من حوادث وقعت في الماضي السحيق، في الماضي البعيد، ما كان للنبي عليه الصلاة والسلام أن يعرفها، طبيعته،

صحراؤه التي عاش فيها، بيئته التي نشأ فيها، انقطاعه عن العالم الخارجي، أميته، طبيعة المكان الذي نشأ فيه ما كانت تسمح له أن يطَّلَع على هذه الأخبار، هذا غيب الماضي.

وأما غيب الحاضر فكل مؤامرات اليهود التي أحاكوها أنبأه الله بها في حياته، تأمر أعداء النبي عليه الصلاة والسلام تأمروا على أن يباغتوه وهو يصلي مع أصحابه، فجاءت آيات الصلاة في أثناء الحرب تكشف نواياهم الخبيثة، عُمِرُ بن وهب القصة معروفة، تأمر مع صفوان بن أمية على أن يقتل النبي عليه الصلاة والسلام، عندما قَدِمَ المدينة قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا عمير ألم تقل لصفوان كذا وكذا وكذا؟، أي في السيرة المطهرة، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تشير إلى غيب الحاضر، وآيات كثيرة كثيرة تشير إلى غيب المستقبل.

غَلَبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بَعْضِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلِ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4)

سورة الروم

إن فتح مكة من غيب المستقبل:

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (142)

سورة البقرة

هذه من غيب المستقبل، وفعلاً قال السفهاء، لو أن هؤلاء السفهاء سكتوا لنقضوا القرآن الكريم، قال عنهم: إنهم سفهاء، وقد قالوا ما قال الله عنهم، لو أنهم فكروا وسكتوا لأصبح كلام الله باطلاً: **«سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا»** هذه الآية من إعجازه، من إخبار المستقبل، آيات كثيرة تتحدث عن المستقبل، الحديث عن علامات الساعة:

إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيَبُذِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (7)

سورة الإسراء

اليهود **«جِنْنَا بِكُمْ لَفِيْفًا»** هذا من غيب المستقبل:

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (33)

سورة التوبة

الآن الدين الإسلامي في بعض البلاد الغربية إما أنه الدين الثاني أو الثالث، في فرنسا عشرة ملايين مسلم، أي إقبال الناس على الدين الإسلامي في شتى أنحاء العالم إقبالاً منقطع النظير، لأن الإسلام يمثل الوسط، والكمال في الوسط، وكل المبادئ المتطرفة تميل إلى الوسط: **«هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ»** هذه الآية من غيب المستقبل، إذ في القرآن آيات فيها غيب الماضي، وآيات فيها غيب الحاضر، وآيات فيها

غيب المستقبل، وهذه كلها من إعجاز القرآن الإخباري، هناك إعجاز علمي، وهناك إعجاز تشريعي، وهناك إعجاز إخباري.

من الإعجاز العلمي في القرآن الأحكام الحسابي:

هناك إحكام حسابي، من يصدّق أن كلمة (يوم) وردت في القرآن ثلاثمئة وخمسة وستين مرة بعدد أيام السنة؟! وأن كلمة (شهر) وردت في القرآن اثنتي عشرة مرة، وأن كلمات (الجنة) تكافئ كلمات (النار)، وأن كلمات (الدنيا) تكافئ كلمات (الآخرة)، وأن كلمات (الشياطين) تكافئ كلمات (الملائكة)، وأن كلمة (البر) وردت في القرآن مع كلمة (البحر) بنسبة البرّ إلى البحر تماماً حتى في الأعشار، كلمة (البرّ) وردت ثلاث عشرة مرة، وكلمة (البحر) وردت ثلاثاً وثلاثين مرة، نسبة تسعة وعشرين إلى مئة تقريباً إلى واحد وسبعين هي نسبة البر إلى البحر، هذا إحكام عددي، وهناك إعجاز رياضي، وهناك إعجاز بلاغي، أي لا يتسع المجال لا في درس ولا في درسين ولا في عام بأكمله للوقوف عند نقاط الإعجاز في القرآن الكريم.

من أيقن أن علم الله يطوله وقدرته تطوله لا يمكن أن يعصيه:

لكن كل نقطة من نقاط إعجازه تثبت للمؤمن أن هذا الكلام كلام الله، وأنك إذا أيقنت أن هذا الكلام كلام الله فيجب أن تأخذ به على أنه كلام الله، والله سبحانه وتعالى هو خالق الكون، إليه المصير، أنت أحياناً إذا ثبت لديك أن هذا الكلام كلام زيد من الناس، وتعرف من زيد، ما عند زيد من عطاء، وما عنده من عقاب، وإذا ثبت أن هذا الكلام كلامه، وأنه يأمر بكذا، وينهاك عن كذا، لماذا تنضبظ؟ لماذا تفعل ما أمر وتنتهي عما عنه نهى؟ ليقينك بشيئين، بمن هو زيد، وأن هذا الكلام كلام زيد، هذا أنت تفعله وأنت لا تدري في تعاملك اليومي، إذا أيقنت أن هذا الكلام كلام فلان وفلان تعرفه من هو، إذا قال فعل، وعده ثمين ووعده مخيف، وهذا أمره، وعلمه بطولك وقدرته تطولك، لا تنسوا هذه الآية:

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (12)

سورة الطلاق

اختار الله عزّ وجل من بين أسمائه كلها القدرة والعلم، أي إذا أيقنت أن علمه

يطولك:

وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (7)

سورة طه

ما من شيءٍ إلا وهو مُطَّلَعٌ عليه، نواياك، أعماق نفسك، ما تظن أنه لا يعلمه أحد، خفايا مشاعرك، طموحاتك، أهدافك البعيدة جداً يعلمها، علمه يطولك، وقدرته تطولك، أنت كلك بيده، بدءاً من خلاياك، إلى أجهزتك، إلى أعضائك، إلى مشاعرك، إلى قلبك، إلى عقلك، إلى أهلك، إلى أولادك، إلى عملك، إلى من هم دونك، إلى من هم فوقك، كلهم بيده، إذا أيقنت أن علمه يطولك، وقدرته تطولك لا بدّ من أن تستقيم على أمره، ألا تستحيي أن تستقيم على أمر زيد أو عبيد إذا أيقنت أن علمه يطولك وقدرته تطولك؟! برّك إذا كنت تقود مركبةً، والإشارة حمراء، وإلى جانب الإشارة ضابطٌ كبير في الشرطة، وحوله الجنود مع درّاجاتهم النارية أتخترق هذه الإشارة الحمراء؟ ضابط كبير في شرطة السير، وحوله الجنود، وهو يقف على هذه الإشارة بعيونٍ فاحصة، وأنت على الإشارة، أتخترق هذه الإشارة؟ أنتخطاها مخالفاً؟ لماذا لم تفعل؟ ما من إنسانٍ على وجه الأرض فيه ذرة تفكير يتخطى الإشارة في هذا الظرف، أما بعد الساعة الثانية ليلاً فليس هناك شرطي، إذا علم واضع النظام لا يطولك، تتخطى، وقد تكون أهم من هذا الذي يخالفك فتتخطى الإشارة، إذا أيقنت أن علمه يطولك، وقدرته تطولك لن تخالف الأمر، ألا يستحيي المرء من الله عزّ وجل أن ينضب مع إنسان، أن يطبق أمر زيد أو عبيد وهو يعصي خالق الأكوان؟ حينما يعصي الإنسان ربه على ماذا يعتمد؟ على صحته؟ حينما يعصي الإنسان ربه على ماذا يعتمد؟ على ماله؟ على زوجته؟ على أولاده؟ على مكانته، على وظيفته، على قدرته؟ كله فارغ، إذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟

إعجاز القرآن من حيث المضمون:

لذلك أيها الإخوة الأكارم، هذا القرآن من عند الله، إذا أيقنت أنه من عند الله لا بدّ من أن تأخذ مضمونه على محمل الجدّ، يقولون: إن الكاتب العظيم هو الذي يؤلف كتاباً تقرؤه فتبدأ متاعبك، لماذا تقرؤه فتبدأ متاعبك؟ لأن هذا الكتاب يضعك عند مسؤولياتك، يبين لك الأخطار، لو أن إنساناً يشعر ببعض المشاعر في صحته، فالتقى طبيباً بارعاً، فقال له: هذه الأعراض بداياتٍ لمرضٍ خطير، لا ينام الليل، يفكر في العلاج، يفكر في الدواء، يفكر في الاحتياط، فكيف إذا كان الله عزّ وجل يقول لك:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (6)

سورة التحريم

أمر إلهي.. ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ أنت لست مأموراً أن تتقي النار وحدك، أن تتقي النار مع أهلك، مع زوجتك، مع أولادك، مع بناتك.

أيها الإخوة المؤمنون ؛ كلما عرفت الله عزّ وجل معرفةً أعظم كلما عرفت خطر كلامه، قد يأتيك أمر معيّن، التوقيع: فلان عريف، هذا الأمر لك منه موقف، فإذا كان ضابطاً: الملازم فلان، فلك موقف آخر، إذا كان ضابطاً ركناً، فلك موقف ثالث، وإذا كان له رتبة عالية جداً، وأنت جندي عنده فلك موقف رابع، أما إذا كان يحمل أعلى رتبة في الجيش، وبإمكانه أن يفعل بك ما يفعل، وأن يعطيك ما يعطيك، فكلما علت الرتبة في التوقيع كلما كان لك موقف آخر، فإذا كان الأمر من خالق الكون، من الذي إليه المصير:

إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26)

سورة الغاشية

ربنا عزّ وجل يقول للنبي عليه الصلاة والسلام:

ذُرِّي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11)

سورة المدثر

هذا الإنسان يا محمّد إن لم يستجب لك فدعه لي، أنا أعرف كيف أداويه، أنا أعرف كيف أجعله يندفع إلى بابي عقب مصيبةٍ مرّة.

فيا أيها الإخوة الأكارم، والله الذي لا إله إلا هو ما منا واحدٌ إلا وهو غالٍ على الله، ما منا واحدٌ إلا وهو مطلوب من الله عزّ وجل، فإما أن تأتيه مسرعاً بمحض اختيارك، وإما أن يسوقك الله إليه مسرعاً، البطولة أن تأتيه وحدك مسرعاً، وأنت قويّ، وأنت صحيح، وأنت غني، وأنت معافي، من دون مصيبة، من دون مرض، من دون مشكلة، هذا كله في إعجاز القرآن من حيث المضمون.

إعجاز القرآن من حيث الشكل والنظم:

أما إذا انتقلنا إلى إعجازه من حيث النظم والشكل، فحدّث ولا حرج، هذا موضوع يحتاج إلى اختصاص، يحتاج إلى درس خاص، نظم القرآن الكريم، طريقته في تبليغ الأمر، طريقته في النهي، طريقته في العرض، نظمه للكلام، التقديم، التأخير، كيف يعدل ربنا عزّ وجل عن الخبر للإنشاء؟ وعن الأمر للوصف؟ وكيف ينتقل من المخاطب إلى الغائب؟ وكيف في الآية الواحدة يخاطب العقل والقلب معاً؟ بنود إعجاز نظم القرآن بنودٌ طويلةٌ جداً، وعليها شواهد دقيقة، وتحتاج إلى اختصاص في اللغة، أكتفي بشاهد واحد يوضح لكم بعض ما في كتاب الله من إعجاز، قال ربنا عزّ وجل:

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (6)

سورة هود

هذا قرآن، لماذا جاءت كلمة ﴿دَابَّةٍ﴾ نكرة ولم تأت معرفة؟ لأن الله لو قال: الدوابُّ على الله رزقها، معنى ذلك أن الدواب التي تعرفونها، ال التعريف، أو ال العهد، أي الدواب الأليفة، أي الأنعام على الله رزقها، لكن الله عزَّ وجل لما جاء بكلمة دابة جاء بها نكرة فهذه إشارة إلى أن هذا التكرير تنكير شمول، نقول: طالب، هذه الكلمة تنطبق على كل طالب في العالم، أما إذا قلت: الطلاب سوف نعطيهم الجوائز، تقصد أنت الطلاب المتفوقين، أو طلاب هذه المدرسة، أو طلاب هذا المسجد، إذا عرَّفت الكلمة خصَّصتها، فإذا نكرتها عممتها، ربنا عزَّ وجل قال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ هذا التكرير تنكير شمول، لكن إذا دخل معلم على طلابه، وقال: سأعطيكم جائزة، هذا الكلام يشمل الحاضرين، لا يشمل الغائبين، تأتي كلمة (من) ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ هذه ﴿مِنْ﴾ تقيد استغراق أفراد النوع فرداً فرداً، إذا قال المعلم: ما من طالبٍ إلا وله جائزة، هذا الكلام شمل الغائبين، يوجد اثنان غائبان يعطيهم، أما إذا قال: طلاب هذا الصف لهم عندي جائزة فالمقصود الحاضرين، إذاً لما نكر ربنا عزَّ وجل كلمة: ﴿دَابَّةٍ﴾ تنكير شمول أضاف لها: ﴿مِنْ﴾ لاستغراق أفراد النوع، لما نفى واستثنى، لو قال: الدواب على الله رزقها، أي على الله وعلى غير الله، عندما يقول ربنا:

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5)

سورة الفاتحة

هنا يوجد قصر، لو قال: نعبد إياك، نعبدك ونعبد غيرك، أما: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لا نعبد إلا أنت، من تقديم المفعول به على الفعل صار في الجملة قصر، من النفي والاستثناء صار في الجملة قصر ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا﴾ إذا الرزق مقصورٌ على الله عزَّ وجل.

الآن لو قال الله عزَّ وجل: ما من دابةٍ إلا الله يرزقها، لا على وجه الإلزام، يرزقها أو لا يرزقها، ولكن عندما قال: ﴿إِلَّا عَلَى﴾ فإن (على) تقيد الإلزام، من ﴿عَلَى﴾ يوجد معنى، ومن ﴿دَابَّةٍ﴾ يوجد معنى، ومن ﴿مِنْ﴾ يوجد معنى، ومن ﴿مَا﴾ يوجد معنى، ومن ﴿إِلَّا﴾ يوجد معنى، هذا قرآن، ذات مرة حاولت في هذه الآية أن أصيغها صياغة أخرى في اثنتي عشرة صياغة، تشعر أن المستوى هبط فجأة، من حَدْفِ (من) هبط المستوى، من إلغاء القصر هبط المستوى، لذلك هناك إعجاز في نظم القرآن الكريم، والشواهد والدلالات على هذا البند شواهد كثيرة جداً، لكنها تحتاج إلى اختصاص، اختصاص في البلاغة، اختصاص في اللغة، في النحو، في الصرف، في بنية الكلمة، في أوزان الأفعال:

لَا يَكْفِيُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ

عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (286)

سورة البقرة

لماذا قال الله هذا؟ لم لم يقل: لها ما كسبت وعليها ما كسبت؟ أو لها ما اكتسبت وعليها ما اكتسبت؟ هذا موضوعٌ دقيقٌ جداً، الفرق بين كَسَبَ وبين اكتسب كالفرق بين فَعَلَ وافتعل، يوجد فرق دقيق جداً، وهذه كذلك لها بحث، ليس هنا مجال للحديث عن إعجاز القرآن اللغوي، لكن أهل الاختصاص والخبرة كما فعل السحرة سحرة فرعون حينما رأوا العصا أصبحت شعباناً فقالوا:

فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (70)

سورة طه

والله الذي لا إله إلا هو أهل اللغة إذا دققوا في نظم القرآن لا يملكون إلا أن يسجدوا لله عزّ وجل لشعورهم أن هذا الكلام كلام إله، ليس كلام بشر، فوق طاقة البشر، لذلك قال ربنا عزّ وجل:

لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (42)

سورة فصلت

الحديث عن إعجاز القرآن حديث طويل، أعطيك مقتطفات، نماذج، على سبيل المثال لا على سبيل الحصر والقصر.

وقفه مع الفطرة:

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ﴾ أي هذا القرآن رحمة من الله عزّ وجل من ربك لقومك يا محمد ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ هذه هي الفطرة.

أيها الأخ الكريم؛ مع وقفة قصيرة، لو لم تكن فطرة الإنسان كما هي عليه، لو لم تكن فطرته عالية لفعل السوء، لارتكب المعاصي، اعتدى، أكل ما لا حراماً، اعتدى على أعراض الناس، لو لم تكن فطرته عالية لما شعر بشيء، ما شعر بوخر الضمير، ولا بالانقباض، ولا بالضيق، ولا بالشقاء، بقي مقيماً على معاصيه حتى الموت، ولكن رحمة الله عزّ وجل تتمثل بهذه الفطرة التي فطره عليها، فطرة عالية، هذه الفطرة كلما حاد عنها ضاقت نفسه.

انتقل إلى بلاد الغرب حيث لا دين، ولا خلق، ولا شيء من هذا القبيل، قرأنا في علم النفس أن الشاب إذا فعل شيئاً منكراً شعر بحالة اسمها الكآبة، الشعور بالكآبة، ما هي الكآبة؟ هي مرض نفسي خطير، الإحساس بالكآبة هو تأنيب الضمير، يوجد مرض اسمه (الهستيريا)،

الناس يستخدمون كلمة (هستيريا) بمعنى إنسان مجنون، ولكنه مصطلح في علم النفس دقيق، (الهستيريا) شلل عضوي لسبب نفسي، يروون في كتاب علم النفس شاهداً عليها، أن طبيباً شاباً كان في زيارة مريض متقدّم في السن له ابنةٌ شابة، وضع يده على جسمها، وهذه خيانة لمهنة الطب، أصيبت يده بالشلل لشعوره بالذنب، وهذا يعالج نفسياً، شلل عضوي كامل مرّده شعورٌ بالذنب، هذه هي الفطرة.

شاهد آخر: جنديّ في المعركة كان بإمكانه أن ينقذ رفيقه من الموت فلم يفعل، فأصيب بالشلل، هذا المرض اسمه (هستيريا)، مرضٌ أساسه الشلل العضوي لأسبابٍ نفسية، لو فحصت الأجهزة العصبية تجدها سليمة، العضلات سليمة، مراكز التنبّه سليمة، كل شيء في الإنسان سليم، لكنّ نفسه المذنبة ليست سليمة، هي السبب.

موضوع الفطرة موضوع دقيق جداً، وأنت لا ترتاح إلا إذا استقمت على أمر الله، مادام هناك خلل، مادام هناك كذب، مع الكذب يوجد انقباضٌ، مادام عنده نفاق فهناك انقباض، مادام لديه تقصير في العبادات فهناك انقباض، لو أن الإنسان استيقظ بعد طلوع الشمس، لم يعلم أحد به، يشعر بانقباض، كأنه فعلَ ذنباً كبيراً، إذا صلى الفجر بشكل أو بآخر في وقت الفجر، وعاد إلى النوم، يستيقظ بعد أن صلى الفجر في وقته براحة، هذه الفطرة، إن قالت لك أمك: أنا متألّمة يا بني، هل عندك دواء؟ إذا قلت لها: الآن الحصول على الدواء صعب، الساعة الثانية ليلاً، قالت لك: لا عليك، سكتت، هل ترتاح إذا نمت في فراشك وأنت تعلم أن هناك صيدليات مناوبة؟ إذا ذهبت إلى إحدى الصيدليات المناوبة ولم تجد الدواء، وذهبت إلى الثانية، والثالثة، والرابعة، وعدت إلى البيت، في الحالتين أمك لم تأخذ الدواء، لكنك تنام مرتاحاً، لماذا؟ لأنك فعلت الذي عليك، ارتاحت نفسك، رغم أن الدواء لم يُحصَر، لكن في المرة الأولى شعرت بالضيق، إن قالت لك زوجتك: ابنك حرارته مرتفعة، فأهملت أخذه للطبيب تشعر بالضيق، فإذا ذهبت إلى الطبيب وقال لك: يجب أن يبقى هكذا حتى الصباح، حتى أعرف بالضبط ما هو الموضوع، فإنك ترتاح، إذا راقب نفسك لا ترتاح نفسك إلا إذا كنت وفق الشرع فيما أمرك ونهاك، وأي مخالفةٍ للشرع تعود عليك بانقباضٍ وألمٍ نفسيٍّ لا يوصف، هذه هي الفطرة يا إخوان، أكبر معين لنا على طاعة الله، إذا جذت عنها شعرت بالقلق.

لذلك عيادات الأمراض النفسية في بلاد الكفر تفوق عيادات أمراض الجسد، بل إن النسبة التي قرأت عنها أن مئة وخمسة وخمسين في المئة، أي كل إنسان يُعالج مرة ونصفاً عند طبيب نفسي، بسبب الشعور بالانحراف. أي قد ينجو الإنسان أحياناً من القانون، لكن هل ينجو من نفسه؟ لا، إنه لا ينجو، إنسان دهس طفلاً في الساعة الثانية ليلاً، لا يوجد شرطة، ولا أحد يتعبه، أول ليلة لم ينم، ولا الثانية، مضى عليه عشرون يوماً لم يذق طعم النوم، ذهب إلى طبيب نفسي قال له: ما القصة؟ قال له: هكذا جرى بعد الحادثة لم أستطع النوم، فأخبره الطبيب

أنه لا يمكن أن تنام إلا إذا دفعت دية هذا الغلام، فدفعت ديته لأهله من وراء حجاب حتى استطاع أن ينام، هذه هي الفطرة، فكلما جاء في القرآن:

﴿فَإِنَّمَا يَسِرَّنَا بِلسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (58)﴾

سورة الدخان

أي أنت بنيتك بنية وفق الإيمان، إذا خالفتها تشعر بألم، في بيتك؛ لو أنك تناولت طعاماً نفيساً وحدك في السوق، وأهلك وأولادك يأكلون طعاماً خشناً، هل ترتاح؟ تتضايق، الطعام لذيذ لكن يوجد مع الطعام اللذيذ ضيق نفسي، ضيق الفطرة، هذه الخيانة، من لهم غيرك؟ أنت به إلى البيت، هذه هي الفطرة، هل تبتغي الراحة النفسية؟ كن وفق الشرع تماماً، كن عند الأمر والنهي، ولو نظرة، لو أن الإنسان نظر إلى امرأة لا تحل له نظرةً عابرة، وجاء ليصلي، فإنه يشعر أن بينه وبين الله حجاباً، لماذا نظرت يا عبدي؟ لماذا نظرت إلى امرأة لا تحل لك؟ فإذا كنتم تبتغون راحة نفوسكم راحتها في طاعة الله عز وجل، إذا أحببتم نفوسكم، إذا كنتم مفرطين في الأنانية فأطيعوا الله عز وجل، تَقَصُّوا أمره في كل ما أمر.

في البيع، لو أنك كذبت على المشتري، وقلت له: إن هذا القماش جيد، وهو ليس كذلك، تفضل صل الظهر، لا تقدر أن تصلي الظهر، تدخل إلى الجامع فتتوضأ وتصلي، لكنك لم تتصل بالله عز وجل، بينك وبين الله حجاب، لأنك غششت مسلماً، أو غششت غير مسلم. لو أنك قَصَّرت في إطعام هرة، لو أنك ضربت حيواناً أليفاً فتألم، تشعر أن بينك وبين الله حجاباً، هذه هي الفطرة.

من يخالف قوانين الفطرة يصاب بالعصبية والانفجار السريع:

أنا ألحُّ على الفطرة، لأن الإسلام دين الفطرة، في معاملتك لزوجتك، لوالدتك، لأولادك، لأقاربك، لجيرانك، لزبائنك، لموظفك، للمراجعين، أمامك مراجع، معاملته تحتاج إلى توقيع، عندك صديق، والحديث لطيف، والقهوة ساخنة، تقول له: تعال غداً، هل تستطيع أن تصلي الظهر؟ ما ذنبه هو؟ قد أتى من مكان بعيد، وبإمكانك أن تقطع الحديث الممتع مع صديقك، وأن تحل له هذه المعاملة، لذلك هؤلاء الذين يضعون العراقيل أمام الناس يدفعون الثمن باهظاً، من أين يدفعونه؟ من سعادتهم، دائماً عندهم ضيق، كل إنسان مخالف لقوانين الفطرة تجد عنده عصبية، ضيقاً، عنده انفجار سريع، فوراً ينفجر، هذا كله ضيق داخلي، حينما يبني مجده على أنقاض الناس، حينما يبني سعادته على شقائهم، حينما يبني ماله على فقرهم، حينما يعيش على حسابهم، حينما يعذبهم، حينما يخيفهم، هذا صار أشقاهم، يختل توازنه الداخلي، تجده سريع

الغضب، ينفجر بسرعة، لأتفه سبب، إذا رأيتم أحداً انفجر لسبب تافه فاعرفوا أنه مريضٌ نفسياً، هذا خالف قوانين فطرته، ينفجر لأتفه الأسباب، يضرب ضرباً مُبْرِحاً بلا سبب، قد يضرب ابنه لسبب تافه، أنا أعرف إنساناً يضرب طفله الصغير الرضيع إذا بكى، هذا عنده اختلال داخلي، هذا الاختلال من مخالفة قوانين الفطرة.

السعادة كل السعادة في طاعة الله:

فيا أيها الإخوة الأكارم ؛ السعادة كل السعادة تكمن في طاعة الله عزّ وجل، تقطف ثمارها في الدنيا قبل الآخرة، هناك من يقول:

إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (13) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (14) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (15)

سورة الانفطار

أما النعيم مطلق ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ من غير تحديد، في الدنيا يوجد نعيم:

وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (14) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (15)

سورة الانفطار

في القرآن إشارة إلى أن النعيم مستمر، إذا كنت مع قوانين الفطرة، إذا كنت مع أمر الله فأنت في نعيم داخلي، لذلك في قلب المؤمن من سعادة لا يعرفها إلا من ذاقها، لو قُسمت على أهل بلدٍ لكفتهم، ما هي السعادة؟ أنه وفق أمر الله ونهيه، مُنْسَجَمٌ مع كتاب الله عزّ وجل، لا كذب، ولا غيبة، ولا نيمية، ولا نظرة، ولا يأكل قرشاً من مال حرام، ولا استعلاء، ولا كبير، ولا نفاق، أبدأً، منضبط في سمعه، وبصره، ولسانه، وكسب المال، وإنفاق المال، وفي بيته، ومع أهله، وأولاده، كلما كنت أكثر انضباطاً كلما كنت أكثر سعادةً، كل هذا الشرح جاء على كلمة: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، أكثر آيات القرآن الكريم تأتي كلمة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾.

بقيت الآية الدقيقة: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا

أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (47) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوْتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوْلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ (48)﴾.

والحمد لله رب العالمين